

خَلْقٌ أَمْ فَوْضَى: الْعِلْمُ الْحَدِيثُ وَوُجُودُ اللَّهِ

المحاضرة ٥: الحقيقة وتقيضها

أ.ر. سي. سرول

رَأَيْنَا فِي دِرَاسَتِنَا حَتَّى الْآنَ عَنْ عِلْمِ الْكُونِيَّاتِ أَنَّ الْجَدَلَ الْكَبِيرَ بَيْنَ الْإِلْحَادِ وَالْإِيمَانِ بِوُجُودِ اللَّهِ يَتَعَلَّقُ بِالْخَلْقِ. وَجُزْءٌ كَبِيرٌ مِمَّا يَشْغَلُ الْجِدَالَاتِ الْيَوْمَ بَيْنَ أَنْصَارِ الْعِلْمِ وَأَنْصَارِ الْلَاهُوتِ يُرَكِّزُ عَلَى مَسْأَلَةِ الْخَلْقِ. وَرَأَيْنَا سَابِقًا أَنَّ الْمَبْدَأَ الرَّئِيسِيَّ لِلْفَلَسَفَةِ كُلِّهَا، وَبِرَأْيِي أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لِلْعِلْمِ بِرُمَّتِهِ، هُوَ عِبَارَةٌ "إِكْسُ نِيهِيلُو نِيهِيلِ فَيْتْ" (ex nihilo nihil fit)؛ لَا شَيْءٌ يَأْتِي مِنَ الْعَدَمِ. وَذَكَرْتُ أَنَّهُ إِذَا كَانَ شَيْءٌ مَوْجُودًا الْآنَ، فَلَا بُدَّ مِنْ أَنَّ شَيْئًا مَا كَانَ مَوْجُودًا دَائِمًا، وَإِلَّا لَمَا وَجَدَ شَيْءٌ الْيَوْمَ. ذَكَرْتُ ذَلِكَ بِطَرِيقَةٍ عَكْسِيَّةٍ سَابِقًا حِينَ قُلْتُ: "إِذَا كَانَ هُنَاكَ وَقْتُ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مَوْجُودًا فِيهِ، عَلَى الْإِطْلَاقِ، فَمَاذَا كَانَ لِيُوجَدَ الْيَوْمَ؟" لَا شَيْءٌ عَلَى الْإِطْلَاقِ. مَا لَمْ يَكُنْ لِيَشَيْءٌ مَا الْقُدْرَةُ أَنْ يَخْلُقَ نَفْسَهُ، أَوْ الْقُدْرَةُ عَلَى مَا نُسَمِّيهِ "الْخَلْقَ الدَّائِيَّ". وَإِنْ طَبَّقْنَا قَوَاعِدَ الْمُنْطِقِ - أَيِ الْجَانِبَيْنِ الشَّكِّيِّ وَالْإِسْتِنْبَاطِيِّ مِنَ الْمَنْهَجِ الْعِلْمِيِّ - عَلَى هَذَا الْمَفْهُومِ، نَكْتَشِفُ أَنَّهُ لَيْسَ فَقَطْ غَيْرَ مَنْطِقِيٍّ، بَلْ غَيْرَ عِلْمِيٍّ. فَكَيْ يَخْلُقَ الشَّيْءُ نَفْسَهُ، عَلَيْهِ أَنْ يَسْبِقَ نَفْسَهُ زَمَنِيًّا. وَعَلَيْهِ أَنْ يُوجَدَ قَبْلَ أَنْ يُوجَدَ. أَيُّ عَلَيْهِ أَنْ يُوجَدَ وَلَا يُوجَدَ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ وَفِي الْعِلَاقَةِ نَفْسِهَا. يُشْبِهُ هَذَا قَوْلَنَا إِنَّ الْكُونَ تَفَجَّرَ إِلَى حَيَزِ الْوُجُودِ، وَهُوَ مَا سَخِرْتُ مِنْهُ فِي مُحَاصِرَتِنَا السَّابِقَةِ.

كَمَا ذَكَرْتُ سَابِقًا أَيضًا، لَيْسَ كُلُّ مَنْ يُنْكِرُ الْخَلْقَ يَلْجَأُ إِلَى مَفْهُومِ الْخَلْقِ الدَّائِيَّ. فَهَذَا مَنْ يَقُولُونَ إِنَّ الْكُونَ أَرِيٌّ. لَنْ أَتَطَّرَقَ إِلَى هَذَا الْمَوْضُوعِ هُنَا نَظْرًا لِضَيْقِ الْوَقْتِ. فَالْجَدَلُ السَّائِدُ الْيَوْمَ لَيْسَ بَيْنَ مَنْ يَرَوْنَ أَنَّ لِلْكَوْنِ بَدَايَةَ وَمَنْ يَقُولُونَ إِنَّهُ أَرِيٌّ. بَلِ الرَّأْيُ السَّائِدُ هُوَ كَوْزُمُولُوجِيَا الْإِنْفِجَارِ الْكَبِيرِ، الَّتِي تُشِيرُ إِلَى نُقْطَةِ نَشُوءٍ مُنْذُ مَا بَيْنَ ١٥-١٨ مِلْيَارَ سَنَةٍ.

خُضْتُ حِوَارًا بِالْمُرَاسَلَةِ مَعَ كَارْلُ سَاجَانِ (Carl Sagan) حَوْلَ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ مُنْذُ بَضْعِ سَنَوَاتٍ، وَطَرَحْتُ عَلَيْهِ السُّؤَالَ الْبَدِيهِيَّ الْمُقْتَرَنَ بِكَوْزُمُولُوجِيَا الْإِنْفِجَارِ الْكَبِيرِ: "إِذَا كَانَتْ كُلُّ مَادَّةٍ وَطَاقَةٍ مَضْغُوطَةً فِي الْأَزَلِ فِي نُقْطَةِ تَفَرُّدٍ مُتَنَاهِيَةِ الصَّغَرِ، ثُمَّ بَعْدَ ظَهْرِ يَوْمٍ جُمُعَةٍ فِي السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ انْفَجَرَتِ النُّقْطَةُ، وَابْتَدَأَ الْكُونَ يَمْتَدُّ مِنْ هَذَا الْإِنْفِجَارِ". فَسَأَلْتُ: "مَا الَّذِي سَبَبَ الْإِنْفِجَارَ؟ وَمَاذَا كَانَ مَوْجُودًا قَبْلَ نُقْطَةِ التَفَرُّدِ؟ لِأَنَّهُ إِنْ كَانَتْ نُقْطَةُ التَفَرُّدِ حَامِلَةً مُنْذُ الْأَزَلِ، فَمَا الْقُوَّةُ الْخَارِجِيَّةُ الَّتِي مُورِسَتْ عَلَيْهَا فَجَاءَتْ وَسَبَبَتْ هَذَا التَّحَوُّلَ، أَيِ هَذَا الْإِنْفِجَارِ؟" أَجَابَ كَارْلُ أَنَّهُ لَمْ يَشْعُرْ بِحَاجَةٍ إِلَى اسْتِكْشَافِ شَيْءٍ سَابِقٍ لِلْحِظَّةِ الْخَلْقِ الْأُولَى هَذِهِ، أَوْ إِلَى طَرَحِ أَيِّ أَسْئَلَةٍ بِشَأْنِهَا. وَأَدَهَشَنِي ذَلِكَ لِأَنِّي ذَكَرْتُ أَنَّ مَهْمَةَ الْعِلْمِ وَالْفَلَسَفَةِ، وَفَقَّ أَفْلَاطُونَ، هِيَ انْقِضَادُ الظَّوَاهِرِ. وَيَعْنِي ذَلِكَ الْوُصُولَ إِلَى عِلَّةٍ كَافِيَةٍ وَفَعَالَةٍ لِكُلِّ

مَا هُوَ مَوْجُودٌ. وَأَقْدَمُ سُؤَالٍ فِي الْعِلْمِ هُوَ: "لِمَاذَا يُوجَدُ شَيْءٌ بَدَلًا مِنْ لَا شَيْءٍ؟" فَالْأَمْرُ الْوَحِيدُ الَّذِي نَعْرِفُهُ يَقِينًا هُوَ أَنَّنَا لَسْنَا لَا شَيْءًا.

كَمَا ذَكَرْتُ قَبْلًا، غَالِبِيَّةُ الَّذِينَ يُنْكِرُونَ الْخَلْقَ وَالْخَالِقَ يَلْجَأُونَ فِي تَفْسِيرِ أَصْلِ الْكَوْنِ إِلَى شَكْلِ أَوْ آخَرٍ مِمَّا نُسَمِّيهِ الْخَلْقَ الدَّائِيَّ. وَرَأَيْنَا أَنَّ فِكْرَةَ الْخَلْقِ الدَّائِيَّ خَاطِئَةٌ تَحْلِيلِيًّا، أَيْ غَيْرُ مَعْقُولَةٍ مَنْطِقِيًّا. إِذَنْ، الْمَشْكَلَةُ الَّتِي يُوَاجِهَهَا أَنْصَارُ هَذَا الرَّأْيِ هِيَ كَيْفِيَّةُ تَبْرِيرِ فَرْضِيَّةِ أَوْ افْتِرَاضِ غَيْرِ مَنْطِقِيٍّ بَوْضُوحٍ، مِنْ خِلَالِ حُجَّةٍ مَا. تَقُومُ الْحُجَّةُ عَادَةً عَلَى عَمَلِيَّةٍ مِنْ عَمَلِيَّتَيْنِ مُخْتَلِفَتَيْنِ.

أَوْلَايَكِ الْمُظْلِعُونَ عَلَى الْفَلَسَفَةِ يَقُولُونَ إِنَّهُ لَيْسَ عَلَيْنَا أَنْ نُنْسَبَ سَبَبًا سَابِقًا لِأَيَّةِ نَتِيجَةٍ، لِأَنَّ دَافِئِدَ هِيَوْمٍ، فِي نَقْدِهِ لِلْسَّبَبِيَّةِ، أَبْطَلَ مَبْدَأَ السَّبَبِ وَالتَّيَجَّةِ بِرُمَّتِهِ.

سَأَخْصُصُ مُحَاضَرَةً مُنْفَصِلَةً لِهَذَا الْمَوْضُوعِ. الْأَمْرُ الْآخَرُ الَّذِي جَدَّبَ الْمَزِيدَ وَالْمَزِيدَ مِنَ الْأَشْخَاصِ الْيَوْمَ، وَلَا سِيَّمَا فِي الْمُجْتَمَعِ الْعِلْمِيِّ، هُوَ أَنَّ فِيزِيَاءَ الْكَمِّ، وَلَا سِيَّمَا مَبْدَأَ اللَّاحْتِمِيَّةِ لِهَائِرِنْبِرْجِ أَثْبَتَتْ عِلْمِيًّا إِمْكَانِيَّةَ الْخَلْقِ الدَّائِيَّ - أَيْ إِمْكَانِيَّةَ مَجِيءِ شَيْءٍ تَلْقَائِيًّا مِنَ الْعَدَمِ. هَذَا الْأَمْرُ أَثَارٌ فِي الْأَيَّامِ الْأُولَى لِاخْتِبَارِ فِيزِيَاءِ الْكَمِّ جَدَلًا كَبِيرًا بَيْنَ عَمَلَاءِ عَالَمِيَّيْنِ فِي مَجَالِ الْفِيزِيَاءِ - نِيلِزْ بُوْر (Niels Bohr) مِنْ كُوبِنهَاغِنِ وَالْبِرْتِ أَيْنِشْتَايْنِ.

دَعُونِي أَحَدِّثُكُمْ قَلِيلًا عَنِ نِيلِزْ بُوْر. كَانَ لَدَى نِيلِزْ بُوْر ثُرْسٌ يَحْمِلُ شِعَارَ الْعَائِلَةِ، وَعَلَى شَارَةِ الثُرْسِ كُتِبَتْ هَذِهِ الْعِبَارَةُ اللَّاتِينِيَّةُ: "سَأَكْتُبُهَا لَكُمْ: "كُونْتَرَارِيَا سُونْتِ كُومْبِلِيمِنْتَارِيَا" (*Contraria sunt complementaria*). مَا مَعْنَاهَا بِبَسَاطَةٍ؟ كَانَتْ شَارَةُ الْعَائِلَةِ تَقُولُ: "الْمُتَنَاقِضَاتُ تُكَمِّلُ بَعْضَهَا بَعْضًا". فِي الْمَنْطِقِ، ثَمَّةُ قَاعِدَةٌ تُسَمَّى اسْتِحَالَةَ اجْتِمَاعِ تَقْيِضَيْنِ. وَهِيَ تَقُومُ فِي الْأَسَاسِ عَلَى الْقَانُونِ الْأَسَاسِيِّ لِلْعِلْمِ بِأَكْمَلِهِ - وَهُوَ قَانُونُ عَدَمِ التَّنَاقُضِ، الَّذِي يُفِيدُ بِأَنَّ الشَّيْءَ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُوجَدَ وَلَا يُوجَدَ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ وَفِي الْعِلَاقَةِ نَفْسِهَا. أَيْ إِنَّ الشَّيْءَ وَتَقْيِضَهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُوجَدَا فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ وَفِي الْعِلَاقَةِ نَفْسِهَا. إِلَيْكُمْ مَا قَالَهُ نِيلِزْ بُوْر. قَالَ: "الْحَقُّ الْعَظِيمُ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي يَكُونُ تَقْيِضُهُ أَيْضًا صَحِيحًا". لَمْ يَتَحَدَّثْ عَنِ مُجَرَّدِ حَقٍّ، بَلِ الْحَقُّ الْعَظِيمُ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي تَقْيِضُهُ أَيْضًا صَحِيحٌ. أَعْرَاضِي، لَيْسَتْ هَذِهِ مُجَرَّدَ نِهَآيَةِ الْفَلَسَفَةِ، أَوْ اللَّاهُوتِ، بَلِ نِهَآيَةُ الْمَعْرِفَةِ، وَنِهَآيَةُ الْعِلْمِ. فَهَذَا لَا يَقْضِي فَقَطْ عَلَى فِيزِيَاءِ نِيُوتِنِ، بَلِ عَلَى أَيْنِشْتَايْنِ أَيْضًا، وَعَلَى "بُوْر" نَفْسِهِ.

أَدَلَى كَارْلُ سَاجَانُ بِتَعْلِيْقٍ لَافِتٍ عَلَى تَصْرِيْحِ نِيلِزْ بُوْر. قَالَ سَاجَانُ: "لَوْ كَانَ هَذَا التَّصْرِيْحُ صَحِيحًا، فَرَبَّمَا تَكُونُ عَوَاقِبُهُ خَطِرَةً قَلِيلًا عَلَى الْأَقَلِّ". عَلَى الرَّغْمِ مِنْ تَقْدِيرِي لِإِنْتِقَادِ سَاجَانُ لِكَلَامِ "بُوْر" فِي هَذَا الصِّدَدِ، يَجِبُ تَسْجِيلُ

نَقَدِهِ فِي "مَوْسُوعَةِ غِينِيْسٍ لِلأَرْقَامِ الْقِيَاسِيَّةِ" بِاعْتِبَارِهِ أَكْثَرَ تَصْرِيحٍ مُحْفَفٍ عَلَى الإِطْلَاقِ. "لَوْ كَانَ هَذَا صَحِيحًا، فَرَبَّمَا يَكُونُ خَطَرًا قَلِيلًا عَلَى الأَقَلِّ". ثُمَّ تَابَعَ لِتَفْسِيرِ السَّبَبِ، وَمِنَ اللَّافِتِ بِمَا يَكْفِي أَنَّهُ احْتَكَمَ إِلَى مَجَالِ الأَخْلَاقِ، مُسْتَشْهِدًا بِالقَاعِدَةِ الذَّهَبِيَّةِ، ثُمَّ تَنَاوَلَ الوَصَايَا العَشْرَ وَقَالَ: مَاذَا عَسَانَا نَفْعَلُ بِوَصِيَّةِ 'لَا تَقْتُلْ'. فَلَوْ كَانَ تَقْيِضُهَا أَيْضًا صَحِيحًا، وَإِنْ كَانَ حَقًّا عَظِيمًا أَنْ يَمْتَنِعَ النَّاسُ عَنِ قَتْلِ أَحَدِهِمُ الأَخْرَى، مَعَ سَبْقِ الإِصْرَارِ وَالتَّرْصُدِ، وَالتَّقْيِضِ أَيْضًا حَقًّا عَظِيمًا، فَمَاذَا سَيَعْنِي ذَلِكَ؟ يَجِبُ أَنْ تَقْتُلَ، أَيْ تَرْتَكِبَ جَرِيْمَةَ قَتْلِ مَنْ الدَّرَجَةِ الأُولَى". هَذَا مَا قَالَ كَارْلُ سَاجَانُ إِنَّهُ يَجْعَلُ هَذِهِ الفُرْضِيَّةَ خَطَرَةً قَلِيلًا عَلَى الأَقَلِّ. لَكِنِّي أَقُولُ إِنَّهُ لَوْ كَانَ مِنَ الصَّوَابِ أَنْ تَكُونَ الفُرْضِيَّةُ وَتَقْيِضُهَا كِلَاهُمَا صَحِيحَيْنِ، فَهَذِهِ نِهَآيَةُ العِلْمِ، وَنِهَآيَةُ اللّاهُوتِ. أَوْدُ القَوْلِ إِنَّ هَذِهِ الفِكْرَةَ تَقْبِضُ الطُّلَّابَ الأَمْرِيكِيِّينَ اليَوْمَ. آلَانُ بِلُومُ (Allan Bloom)، فِي كِتَابِهِ بِعُنْوَانِ "إِغْلَاقُ العَقْلِ الأَمْرِيكِيِّ" (The Closing of the American Mind)، وَتَقَى هَذَا النُّوعَ مِنَ النِّسْبِيَّةِ. وَحِينَ أَدْخُلُ صَفَّ كَلْبِيَّةِ اللّاهُوتِ لِأَعْلَمَ طُلَّابِ السَّنَةِ الأُولَى الَّذِينَ سَيُصْبِحُونَ لَاهُوتِيِّينَ، أَجِدُ عَالِيَتَهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الحَقَّ نَفْسُهُ يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ مُتَنَاقِضًا. تَتَغَلَّبُ هُنَا اللّاعْقَلَانِيَّةُ عَلَى تَفْكِيرِنَا، وَأَسْأَلُ: "مَنْ سَيُوقِفُ هَذِهِ السَّخَافَةَ المُسْتَمِرَّةَ؟" أَرْجُو أَنْ تُودِّيَ صِنَاعَةُ الكُومْبِيُوتَرِ هَذَا الدَّوْرَ، لِأَنَّ الكُومْبِيُوتَرِ، حَسَبَ فَهْمِي، يَحْتَاجُ إِلَى قَدْرِ مِنَ الإِتِّسَاقِ لِيَعْمَلَ دُونَ أَنْ يَحْرَبَ.

اعْتَرَضَ أَيْنِشْتَاينَ عَلَى فَهْمِ "بُور" لِفِيْزِيَاءِ الكَمِّ وَمَبْدَأِ اللّاحْتِمِيَّةِ، وَأَدْلَى بِهَذَا التَّعْلِيْقِ القَوِيِّ. قَالَ أَيْنِشْتَاينَ: "اللَّهُ لَا يَلْعَبُ بِالتَّرْدِ، وَإِنْ كَانَ يَلْعَبُ بِهِ"، قَالَ أَيْنِشْتَاينَ، "فَأَيُّ أَفْضَلٍ أَنْ أَكُونَ إِسْكَافِيًّا أَوْ مُوَظَّفًا فِي نَادِي قِمَارٍ عَنِ أَنْ أَكُونَ فِيزِيَائِيًّا". وَانْتَقَدَهُ كَاتِبُ سِيرَتِهِ، نَائِجِلُ كَالْدَر (Nigel Calder)، بِسَبَبِ انْتِقَادِهِ "نِيلزُ بُور"، مُدْلِيًا بِهَذَا التَّعْلِيْقِ: "اللَّهُ حَقًّا يَلْعَبُ بِالتَّرْدِ. فَلدَيْهِ طَاوِلَاتُ قِمَارٍ فِي كُلِّ ذَرَّةٍ وَكُلِّ مِيلِمِترٍ مُكْعَبٍ مِنَ الفِرَاعِ". مَا الَّذِي قَدْ يَدْفَعُ مَخْلُوقَاتِ عَاقِلَةً وَذَكِيَّةً وَمُتَقَفَّةً وَوَاعِيَةً إِلَى التَّكَلُّمِ هَكَذَا؟ يَعُودُ هَذَا جُزْئِيًّا إِلَى المُنَآخِ الَّذِي نَعِيشُ فِيهِ، الَّذِي يَرْحُبُ بِمَا يُنَآفِي العَقْلَ. نَعِيشُ اليَوْمَ فِي مَسْرَحِ اللّامَعْقُولِيَّةِ، وَنَعْتَقِدُ نَوْعًا مَا لَيْسَ فَقَطْ بِوُجُودِ حُرِّيَّةِ، بَلْ أَيْضًا عَظَمَةٍ، فِي أَنْ تُبْحَرَ سَفِينَتُنَا فِي بَحْرِ اللّاعْقَلَانِيَّةِ. وَيَمِيلُ المَسِيحِيُّونَ إِلَى الإِعْتِقَادِ بِوُجُودِ نَوْعٍ مِنَ التَّقْوَى فِي تَأْيِيدِ التَّنَاقُضَاتِ، وَبِأَنَّ ذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى القِيَامِ بِقَفْزَةِ إِيمَانٍ صَحْمَةٍ وَبُطُولِيَّةِ، تُكْرِمُ اللَّهَ، مَعَ أَنَّ ذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهَ مَصْدَرًا لِلتَّشْوِيْشِ، وَيَجْعَلُ الرُّوحَ القُدْسَ مُحَادِعًا. مَا عَلَيْنَا. فَالْمَسْأَلَةُ صَحْمَةٌ مِنْ حَيْثُ تَأْثِيرُهَا الوُجُودِيُّ.

دَعُونِي أَقْرَأُ مُقْطَعًا كَتَبَهُ تِيْمُوْثِي فِيرِيْس (Timothy Ferris)، يُدَخِّصُ بَعْضَ المَشَاكِلِ المُتَعَلِّقَةِ بِفِيْزِيَاءِ الكَمِّ وَمَبْدَأِ اللّاحْتِمِيَّةِ. بِوَجْهِ عَامٍّ وَبِبَسَاطَةٍ، مَا أَثَارَ كُلَّ ذَلِكَ هُوَ بَعْضُ التَّجَارِبِ عَلَى الجُزْئِيَّاتِ المُكُونَةِ لِلدَّرَاتِ، الَّتِي لَمْ تَتَمَكَّنْ

مِنَ التَّنَبُّؤِ بِحَرَكَةِ هَذِهِ الْجُزَيْئَاتِ عَنِ يَقِينٍ. وَكَانَتْ تَتَحَرَّكُ بِطَرِيقَةٍ تُدْهِشُ مُلَاحِظَهَا. ظَنَّ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ أَنَّ مُجَرَّدَ وُجُودِ مُجْرِي تَجَارِبِ يَتَدَاخَلُ مَعَ أَنْمَاطِ حَرَكَةِ هَذِهِ الْجُزَيْئَاتِ. لَكِنِ لِلْوَهْلَةِ الْأُولَى، لَا يَسْعُنَا فَهْمُ سَبَبِ تَحْرُكِ هَذِهِ الْجُزَيْئَاتِ بِالطَّرِيقَةِ الَّتِي نُلَاحِظُهَا. لَدَيْنَا إِذَنْ ظَاهِرَةٌ لَمْ تَتَمَكَّنْ أَيُّ صِيغَةٍ حَتَّى الْآنَ مِنْ إِنْقَاذِهَا. لِدَا، فَالْأَمْرُ مَفْتُوحٌ لِكُلِّ الْإِحْتِمَالَاتِ، مِمَّا أَتَاخَ لِلْبَعْضِ التَّحَدُّثَ عَنِ الْخَلْقِ الدَّائِي، أَيِّ مَجِيءِ شَيْءٍ مِنَ الْعَدَمِ، إِلَى آخِرِهِ. يُعْجِبُنِي أَنَّ هَايْزِبْرُجَ دَعَا ذَلِكَ "مَبْدَأَ اللَّاحْتِمِيَّةِ". وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ لِهَذَا مَعْنِيَانِ مُخْتَلِفَانِ. يَبْدُو لِي أَنَّهُ مِنَ الْإِتِّصَاعِ أَنْ نَقُولَ: "نَحْنُ نُجْرِي هَذِهِ التَّجَارِبَ، وَيُدْهِشُنَا مَا نُلَاحِظُهُ وَنُسَجِّلُهُ. وَنَعْجِزُ عَنِ تَفْسِيرِ مَا يَجْرِي هُنَا بِالْمَعْرِفَةِ الْمَتَّاحَةِ لَدَيْنَا". لِدَا حِينَ أَسْأَلُ: "مَاذَا تَسَبَّبَ فِي حُدُوثِ هَذَا الْفِعْلِ؟" عَلَيَّ فِي تَرَوُّ أَنْ أَنْخِي بِإِتِّصَاعِ قَائِلًا: "لَا أَعْرِفُ. فَالسَّبَبُ غَيْرُ مُحَدَّدٍ بَعْدُ، لَكِنَّنَا نَأْمَلُ بِمَزِيدٍ مِنَ الْفَحْصِ وَالتَّحْلِيلِ وَالمَعْرِفَةِ أَنْ نَتَمَكَّنَ مِنْ فَهْمِ مَا يَجْرِي". أَعْتَقِدُ أَنَّ هَذَا تَوَجُّهُ عِلْمِي لِأَيْقُ نُجَاهِ النَّتَائِجِ الْمُحِيرَةِ لِلتَّجَارِبِ. لَكِنِ إِنْ اتَّخَذَ أَحَدُهُمْ خُطْوَةً أَبْعَدَ قَائِلًا: "أَعْلَمُ أَنَّ حَرَكَةَ هَذِهِ الْجُزَيْئَاتِ هِيَ بِلَا سَبَبٍ"، هُنَا أَصِيحُ قَائِلًا: "مَهْلًا! لَسْتُ فِيزِيَائِيًّا، وَلَسْتُ عَالِمًا فَلَدِي، لَكِنِّي مُلِمٌّ بِالْمَنْطِقِ، وَالتَّصْرِيحِ الَّذِي أَذَلَّتْ بِهِ لِتَوَكُّ لَيْسَ فَقَطْ غَيْرَ مَنْطِقِيٍّ وَمُنَافِيًّا لِلْعَقْلِ، لَكِنَّهُ قِمَّةُ الْعَجْرَفَةِ، لِأَنِّي إِذَا لَمْ أَعْرِفْ سَبَبَ فِعْلٍ مُعَيَّنٍ، كَيْفَ يُمَكِّنِي أَنْ أَتَبَيَّنَ هَكَذَا مِنْ عَدَمِ وُجُودِ سَبَبٍ لَهُ؟ فَيَلْبُوغُ هَذِهِ الدَّرَجَةَ مِنَ الْيَقِينِ، يَجِبُ أَنْ أَفْحَصَ كُلَّ قُوَّةٍ يُمَكِّنُ تَصَوُّرَهَا مَوْجُودَةً فِي الْكَوْنِ كُلِّهِ. لَا يَتَطَلَّبُ إِصْدَارُ حُكْمٍ كَهَذَا مَا يَقِلُّ عَنِ عِلْمٍ كُلِّيٍّ". إِذَنْ، مِنْ نَاحِيَةٍ، نُصْدِرُ أَحْكَامًا غَيْرَ مَنْطِقِيَّةٍ، وَمِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى، نُصْدِرُ أَحْكَامًا مُتَعَجَّرَفَةً، لِأَنَّنَا نَفْتَرِضُ مُسَبِّقًا أَنَّنَا فَحَصْنَا وَفَهَمْنَا وَأَدْرَكْنَا كُلَّ احْتِمَالٍ يُمَكِّنُ تَصَوُّرَهُ.

تِيْمُوْثِي فِيرِيْس، الَّذِي كَتَبَ الْمُؤَلَّفَ الرَّائِعَ عَنِ تَارِيخِ عِلْمِ الْكُوْنِيَّاتِ فِيْمَا يَخْتَصُّ بِدَرْبِ التَّبَاتَةِ، قَدَّمَ هَذِهِ الْخُلَاصَةَ، قَائِلًا: "كَلَّمَا تَمَعَّنَ الْفِيزِيَائِيُّونَ فِي فَحْصِ الْعَالَمِ دُونَ الدَّرِيِّ، زَادَتِ اللَّاحْتِمِيَّةُ. فَحِينَ يَصْطَدِمُ فَوْتُونٌ بَدْرَةً، دَافِعًا الْإِلِكْتْرُونَ إِلَى مَدَارٍ أَعْلَى، يَنْتَقِلُ الْإِلِكْتْرُونَ مِنَ الْمَدَارِ الْأَدْنَى إِلَى الْأَعْلَى عَلَى الْفَوْرِ، دُونَ تَجَاوِزِ الْمِسَاحَةِ الْفَاصِلَةِ بَيْنَهُمَا. إِنَّ أَقْطَارَ الْمَدَارَاتِ نَفْسَهَا مُحَدَّدَةٌ، وَالْإِلِكْتْرُونَ بِبَسَاطَةٍ لَا يَعُودُ مَوْجُودًا عِنْدَ نُقْطَةِ مُعَيَّنَةٍ، ثُمَّ يَظْهَرُ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ عِنْدَ أُخْرَى. هَذِهِ هِيَ الثَّقَلَةُ التَّوَعِيَّةُ الشَّهِيرَةُ وَالمُحِيرَةُ، وَهِيَ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ لُغْزٍ فَلْسَفِيٍّ. وَمَا لَمْ تُؤَخَذْ عَلَى مَحْمَلِ الْحَدِّ، لَنْ يُمَكِّنَنَا التَّنَبُّؤُ بِدِقَّةٍ بِحَرَكَةِ الدَّرَاتِ. وَأَوْلَايَكِ الَّذِينَ يَجِدُونَ هَذِهِ الْأَفْكَارَ غَيْرَ مَفْهُومَةٍ لَيْسُوا بِمُفْرِدِهِمْ". أَعْجَبَنِي ذَلِكَ التَّصْرِيحُ الْأَخِيرُ، فَهُوَ يَمْنَحُنِي بَعْضَ الرَّاحَةِ لِأَنِّي أَجِدُ الْأَفْكَارَ غَيْرَ مَفْهُومَةٍ تَمَامًا.

مَا مُشْكَلِي؟ أَكْرُرُ، مُشْكَلِي لَا تَتَعَلَّقُ بِالْمُعْطِيَاتِ أَوْ بِالطَّجْرِبَةِ، لَكِنَّهَا تَتَعَلَّقُ بِالِاسْتِنْتِجَاتِ الَّتِي يَسْتَخْلِصُهَا النَّاسُ مِنْهَا، وَبِطَرِيقَةِ صِيَاعَتِهِمْ لَهَا. لِأَنَّ حُصُولَ أَحَدِهِمْ عَلَى دَرَجَةِ دُكْتُورَاهِ فِي الْفِيزِيَاءِ لَا يَجْعَلُ مِنْهُ تَلْقَائِيًّا خَيْرًا فِي الدِّقَّةِ اللُّغَوِيَّةِ. مِنْ نَاحِيَةٍ، نَقَرْنَا فِي هَذِهِ التَّقْلِيدِ التَّوَعِيَّةِ أَنَّ الْإِلِكْتْرُونَ بِبَسَاطَةٍ لَا يَعُودُ مَوْجُودًا عِنْدَ نُقْطَةِ مُعَيَّنَةٍ، ثُمَّ يَظْهَرُ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ عِنْدَ أُخْرَى. لِحُلِّلْ ذَلِكَ. هَذَا الْإِلِكْتْرُونُ سَرِيعُ الْحَرَكَةِ لَا يَعُودُ مَوْجُودًا عِنْدَ نُقْطَةِ مُعَيَّنَةٍ. رَاقِبُونِي. هَآنَذَا. يُمَكِّنُكُمْ مُرَاقِبَتِي. أَوْ تَحْيَلُوا مَعِي أَنِّي رَاقِبٌ عِنْدَ نُقْطَةِ مُعَيَّنَةٍ، وَسَاحْتَرِكُ. فَحِينَ أَتَحْرِكُ، هَلْ يَنْتَهِي وُجُودِي؟ لَا، فَوْجُودِي يَظَلُّ مُسْتَمِرًّا. لَكِنْ هَلْ يَنْتَهِي وُجُودِي عِنْدَ النُّقْطَةِ الَّتِي كُنْتُ فِيهَا لِتَوَيِّ؟ نَعَمْ، فَلَمْ أَعُدْ هُنَاكَ، لَكِنِّي تَحَرَّكْتُ. إِذَنْ، إِنْ قُلْنَا إِنَّ جَزِيئًا لَمْ يَعُدْ مَوْجُودًا فِي النُّقْطَةِ الَّتِي كَانَ فِيهَا، فَمَا الْمُدْهَشُ فِي ذَلِكَ؟ مِنَ الْوَاضِحِ أَنَّ "فِيرِيَس" أَرَادَ قَوْلَ شَيْءٍ أَعَمَّقَ مِنْ ذَلِكَ، لِأَنَّ هَذَا الْأَمْرَ يَنْطَبِقُ عَلَى حَرَكَةِ أَيِّ جِسْمٍ. لَكِنَّهُ يَقُولُ: "يَبْدُو أَنَّهُ يَخْتَفِي مِنَ الْوُجُودِ ثُمَّ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ يَعُودُ إِلَى الْوُجُودِ". إِنَّهَا فِكْرَةٌ عَمِيقَةٌ أَلَّا يَعُودَ شَيْءٌ مَوْجُودًا وَفِي اللَّحْظَةِ نَفْسَهَا تَمَامًا يُوْجَدُ مِنْ جَدِيدٍ. هَذَا خَلَقَ مِنَ الْعَدَمِ بِامْتِيَارٍ، وَأَنْتِهَآكَ شَدِيدٌ لِقَانُونَ عَدَمِ التَّنَاقُضِ. فَهُوَ يَقُولُ: "هَذَا الشَّيْءُ يَظْهَرُ فَجَاءَةً فِي أَنْحَاءِ الْمَكَانِ، وَلَا أَعْلَمُ لِمَآذَا اخْتَفَى مِنْ هُنَا وَظَهَرَ هُنَا ثَانِيَةً فَجَاءَةً دُونَ اجْتِيَازِ الْمَسَافَةِ الْفَاصِلَةِ". لَدَيْنَا إِذَنْ أَشْيَاءٌ مَادِّيَّةٌ تَنْتَقِلُ مِنَ النُّقْطَةِ أ إِلَى النُّقْطَةِ بِ دُونَ اجْتِيَازِ الْمَسَافَةِ الْفَاصِلَةِ بَيْنَهُمَا. ثَمَّةَ وَسِيلَةٌ لِحُدُوثِ ذَلِكَ، وَهِيَ الْوَسِيلَةُ الَّتِي افْتَرَضَهَا تِيمُوثِي فِيرِيَس. يَتَوَقَّفُ وُجُودُ الْجَزِيئِ فِي النُّقْطَةِ أ ثُمَّ يَظْهَرُ فَجَاءَةً فِي النُّقْطَةِ بِ. وَإِنْ كَانَ هَذَا مَا يَحْدُثُ، وَسَأَسْأَلُكُمْ جَدًّا بِإِمْكَانِيَّةِ ذَلِكَ، يَتَطَلَّبُ الْأَمْرُ قُوَّةَ خَالِقَةٍ. وَسَيَكُونُ هَذَا أَكْبَرَ بُرْهَانٍ يُمَكِّنُ أَنْ يُقَدَّمَ عَلَى وُجُودِ اللَّهِ. مُجَدَّدًا، الْأَمْرُ مُتَرَامِنٌ. إِنْ اخْتَفَى شَيْءٌ مِنَ الْوُجُودِ، فَكَيْفَ تَعْلَمُونَ حِينَ يَظْهَرُ مُجَدَّدًا فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ الَّذِي اخْتَفَى فِيهِ أَنَّ هَذَا هُوَ الشَّيْءُ نَفْسُهُ الَّذِي اخْتَفَى؟ هَلْ يَحْمِلُ عَلَامَةً مَا؟ هَلْ هُنَاكَ جَرَسٌ إِذَا مَتَّصِلٌ بِهِ؟ أَكْرُرُ، لَسْتُ فِيزِيَائِيًّا، لَكِنِّي أَحَاوِلُ فَهَمَّ مَا يَقُولُهُ هُوَ لَا. فَالْلُغَةُ الَّتِي يَسْتَخْدِمُونَهَا، وَالطَّرِيقَةُ الَّتِي يَجْمَعُونَ بِهَا الْكَلِمَاتِ مَعًا بِلا مَعْنَى. كُنْتُ سَأَنْبَهُرُ أَكْثَرَ إِذَا سَمِعْتُ عَالِمًا يَقُولُ: "ثَمَّةَ أُمُورٌ تُحَيِّرُ الْعَقْلَ تَجْرِي هُنَا فِي حَرَكَةِ الْجَزِيئَاتِ الْمُكَوَّنَةِ لِلذَّرَاتِ". "يَبْدُو" - فَقَطْ اسْتَخْدَمُوا كَلِمَةَ "يَبْدُو" - "يَبْدُو لِلْعَيْنِ الْمُجَرَّدَةِ أَنَّ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ تَتَحَرَّكُ مِنْ مَكَانٍ إِلَى الْآخَرِ دُونَ اجْتِيَازِ الْمَسَافَةِ الْفَاصِلَةِ بَيْنَهُمَا. نَعْلَمُ اسْتِحَالَةَ حُدُوثِ ذَلِكَ. لَكِنْ هَكَذَا يَبْدُو الْأَمْرُ". هُنَا يَبْدُو الْعِلْمُ حَكِيمًا. فَلَدَيْنَا لُغَزٌ حَقِيقِي أَنَا مُفْتَنِعٌ أَنَّهُ سَيَكُونُ دَافِعًا أَوْ حَافِرًا لِتَحْقِيقِ إِنجَازِ عِلْمِيَّي أَعْظَمَ وَتَقَدُّمِ عِلْمِيَّي أَكْبَرَ. هَذَا مَا يَحْدُثُ حِينَ نَعْجِزُ عَنْ حَلِّ الْمَشَاكِلِ، فَإِنَّا نَنْسَاقُ إِلَى حُلُولِ جَدِيدَةٍ، وَصِيغِ جَدِيدَةٍ، وَآكْتِشَافَاتٍ جَدِيدَةٍ. هَذَا هُوَ التَّوَجُّهُ الْمُحَفَّرُ لِلْعِلْمِ. لَكِنْ لِيَحْدُثْ ذَلِكَ، يَجِبُ أَنْ نَكْفَ عَنِ التَّحَدُّثِ عَنِ الصُّدْفَةِ، وَالْحُظِّ، وَالْعَدَمِ.

الدكتور آر. سي. سبزل هو مؤسس هيئة خدمات ليجونير، وكان أحد رعاة كنيسة القديس أندرو (St. Andrews Chapel) في مدينة ساتفورد بولاية فلوريدا، كما كان أول رئيس لكلية الكتاب المقدس للإصلاح (Reformation Bible College). وهو مؤلف أكثر من مائة كتاب، بما في ذلك "كلنا لاهوتيون" و"أدهشني الألم".